

في البلاغ، وإخوان صروف في المقتطف، والزيات في دار الرسالة. ولم يلتق إلا مرة أو مرتين بالأستاذ أحمد أمين والدكتور عزيم في لجنة التأليف والترجمة والنشر، عندما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه وحى القلم

قلت: إنه كانت بين الرافعي والشاعر على محمود طه صلة من الود، ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسماً (تصميماً) للبيت الذي كان في نيته أن يبنيه لينتقل إليه وينقل دار كتبه قبل أن يموت. ولهذا البيت قصة لم تتم، لأن هذا البيت لم يتم...، فقد كان كل ما ادخره الرافعي من جهاده بضعاً وثلاثين سنة، بضع مئات من الجنيهات، اشترى بنصفها قراريط لينشئ فيها حديقة وبيتاً يسكنه — إذ كان وما زال إلى أن مات يسكن بيت أبيه — وبقي معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفي نفقات البناء والأثاث، فأترأ أن ينتظر حتى يجتمع إليه شيء، وأسلف صهره ما بقي عنده من المال إلى أجل، وفي النفس أمل... ثم جاءت الأزمة فأكلت ثروة صهره جميعها لم تبق منها على شيء، وضاعت ذخيرة الرافعي فيها ضائع ولم يستطع المدين وفاء الدين، فلم يبق للرافعي من جهاده وما ادخر إلا الأرض الخربة، والأمل في عطف الله، وخطوطيين حدود البيت وحجراته وأبهاءه وحديقته، مرسومة على ورقة زرقاء...!

وجاء ديوان الشاعر على محمود طه، وديوان الماحي؛ فدفعهما إلى الاختار له ما يقرأ من كليهما. ولم أكن أعرف يومئذ ما بينه وبين الشاعر المهندس، ولكن رأيت في ديوانه وافق هواه؛ فافترغت من قراءته حتى دفنته إليه وعلى هامشه إشارات بالقلم، وما دفنته إليه حتى تمها للكتابة عنه... وأنشأ مقالة مسهبة نشرها في المقطم، تحدث فيها عن الشعر حديثاً يبين مذهبه وطريقته في فهم الشعر وفي إنشائه؛ ثم انتنى إلى الشاعر المهندس بمدح وبشئ، وينتقد وينصح... وكان مؤمناً بما كتب، ولكن إيماءات من الواعية الباطنة<sup>(١)</sup> كانت على عليه بعض الحديث في التعريض ببعض الشعراء المعاصرين... وتناول الأستاذ المازني ديوان «الملاح التائه» في البلاغ بعدما تناوله الرافعي، فعاب عليه أشياء كان يمتدحها الرافعي،

(١) الواعية الباطنة: هو تمييز الرافعي عما يسونه في علم النفس بالغل الباطن

للمؤرب والتاريخ

## مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للاستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٨ —

« قرأت كلمة الأستاذ سيد قطب ( بين الفقاد والرافعي ) في العدد السالف من الرسالة ؛ وأنا أعلم الآن عمل المؤرخ لحياة قد استأثر بها التاريخ ، والأستاذ قطب يريد أن يكون ناقداً ، وفي مذهبه أنه « لا يصبح أن يكون الموت معطلا للتقد ... وفي مذهبتنا أنه لا ينبغي أن يكون بيني وبينه جدال يعطل التاريخ ؛ ومع ذلك فإن ما أتى به من النقد ليس بشيء عندنا . ولقد مات الرافعي ولكنه خلف طائفة كريمة من الأدباء ، كلهم أمين على أدبه حريص على تراثه ؛ فلا جرم أن يتولى تزييف هذا النقد أو تعديله رجل غيبي من خلف الرافعي لهم أدبه أثناء عليه ، لأفرغ لنا أنا فيه ؛ فليتنبد له صديقنا ( الأستاذ محمود محمد شاكر ) ، فذلك من أمانات الرافعي في عنته »

العريان

### الملاح التائه

بعد ما أنشأ الرافعي مقالة « وحى الهجرة في نفسي » للممدد الممتاز من الرسالة في سنة ١٣٥٣هـ، أهدى إليه الشاعر المهندس على محمود طه ديوانه « الملاح التائه » ، وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه . وكان بين الرافعي والشاعر المهندس صلة قديمة من الود ، أظنها نشأت في حجرة الأستاذ فؤاد صروف محرر المقتطف ، حيث كان الرافعي يقضي أكثر أوقات فراغه كلاً هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله . وهناك كان يلتقي الرافعي ، وصروف وإسماعيل مظهر ، ومحمود شاكر ، والمعلوف ، وغيرهم من أدباء العربية ، فيجتمعون الجدل ساعات في موضوعات شتى من الأدب . ولم يكن للرافعي ندوة أدبية يقصد إليها كلما جاء القاهرة منذ هجر قلانة — أحب إليه من دار المقتطف ، ثم صار له ندوة ثانية من بعد حين اتصل سببه بالرسالة ؛ فكان يقضي وقته بين عيادة الدكتور شخاشيري في فم الخليج ، وعبد القادر حمزة والملازني

وأخذ على الشاعر أنه كثير العناية بالذوق والمباراة وجزالة الأسلوب؛ فكانت مقالة الأستاذ المازني حاضرة الرافعي على أن ينشئ مقالة الرسالة في الرد عليه، جمل عنوانها «الصحافة لا تجني على الأدب ولكن على قنبيته»؛ فهذه المقالة كان الرافعي يقصد الأستاذ المازني، دفاعاً عن صديقه الشاعر، أو دفاعاً عن مذهبه في الشعر. وكانت هذه أولى مقالات الرافعي في الرسالة بعد فترة من مقالة «وحى الهجرة» وقد أنشأها على نهج القديم، وحاول فيها فناً من التهمك في قصة اختراعها عن الأصمعي الراوية في عهد الرشيد

\*\*\*

### في الرسالة

كان الرافعي مفتوناً بمقالته الثلاث التي أنشأها في هذه الفترة: البلاغة النبوية، وحقيقة السلم، ووحى الهجرة. وكان حسن وقعها عند كثير من القراء حافزاً له على الاستمرار في هذا الباب من الأدب الديني، فمقد النبوة على أن يكتب السيرة النبوية كلها على هذا النسق الفلسفي، ليجمعها كتاباً بعنوانه، يتناول سيرة النبي العظيم - صلى الله عليه وسلم - على طريقة من التحليل والفلسفة، لا على نسق من الرواية. فأنشأ بعد ذلك مقالته: «صوم الفقر»، و«الإنسانية العليا»، ثم بان له من بعد أن هذا الفن من الانشاء عسر الهضم عند كثير من قراء الرسالة، فتركه إلى موضوعات أخرى يعالج بها بعض مشاكل الاجتماع في الحياة المصرية، على أن يكتب ما يتيسر له من المقالات النبوية نجومياً في فترات متباعدة حتى لا يجعل قراءه أويثقل عليهم. وسأحدث من بعد عن كل مقال من المقالات التي أنشأها للرسالة في الفترة التي صحبتته فيها، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودوافعه ومعانيه؛ ولعله يبلغ في الوسيلة إلى الذين لا يفهمون أدب الرافعي ثم يحاولون أن يتحدثوا عن أدب الطبع وأدب الدهن، أو الأدب الفني والأدب النفسى ...

ولكن على قبل أن أبدأ هذا الحديث، أن أصف الرافعي حين يهجم بموضوعه، ثم حين يفكر فيه، ثم حين يتهيأ لكتابتها، ثم حين يحلها على من القصصات البعثة على مكتبته، فإن ذلك من الموضوع فأتمته وأوله:

\*\*\*

اختيار الموضوع كان أول عمل يحتفل له الرافعي؛ وإذا كان لم يعمل في الصحافة قبل اشتغاله بالرسالة، فإنه لم يعود من قبل أن يفتش عن الموضوع؛ ولم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده في نفسه قبل أن يطلبه؛ فلما دعاه الزيات ليكتب للرسالة موضوعاً كل أسبوع، راح يلتمس الموضوعات التي تصلح أن يكتب فيها للرسالة. وكان يضيق بذلك ويتحجر، ثم لم يلبث أن تعودها، فكان يرسل عينه وراء كل منظر، وبعد أذنه وراء كل حديث، ويرسل فكره وراء كل حادثة، ويتلقى باله إلى كل محاورة، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس، ثم لا يبدأ أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره إلا أن يجد له صدى في نفسه، وحديثاً في فكره، وانفعالاً في باطنه. وكثيراً ما كان يعرض له أكثر من موضوع؛ وكثيراً ما كان يترجح عليه فلا يجد موضوعه إلا في اللحظة الأخيرة، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام؛

من ذلك، ومن خشية الإرتاج والحرج، كان دائماً في جيبه ورقات، يكتب في إحداها عنوان كل ما يحظر له من موضوعات الأدب، ليعود إليها عند الحاجة؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكرة بقتيد فيها الخواطر التي تنفق له في أيّ من هذه الموضوعات أين يكون. ويبلغ بذلك أن يجتمع عنده في النهاية ثمت محافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يفرغ لها باله، وورقات أخرى حاشدة بخواطر وممان شتى في أكثر من موضوع واحد، لا تربط بينها رابطة في المعنى ولا في الموضوع. ومن هذه الورقات، ومن فضلات المعاني في المقالات التي كتبها وفرغ منها - كان يختار «كلمة وكليمة» التي كان ينشرها في فترات متباعدة من الرسالة كما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة. فهذه الكلمات هي إحدى ثلاث: خواطر مبعثرة كان يلقاها في غير وقتها، أو عناوين موضوعات لم تتهيأ له الفرصة لكتابتها، أو فئات من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده هذه المعاني بعد تمام الكتابة إذ لم يجد لها موضعاً مما كتب

وبسبب أنه كان يقيّد عناوين الموضوعات التي كان يختارها ليكتبها في وقتها، كان بعيد قراءه أحياناً بموضوعات ثم لا يكتبها

## من برجنا العتيق

أذكر أني ما قرأت بمض فقرات من «بوليوس فيسر» لشكسبير، إلا عمرني حزن حقيقي. قصة أخرى أذكر أيضاً أنها كانت تترك في نفسي أثر: هي رواية فرنسية تسمى «نابليون السكين» لكاتب فرنسي يسمى «برنارزيمر» يصور فيها الامبراطور سجيناً في جزيرة سانت هيلانة، وقد قصت أجنحة هذا النسر الهائل، وقلمت مخالبه، وأمسى مخلوقاً بائساً مهزأ به خادمه ويخني عنه غليونه الذي يدخن فيه، ويهمله سجاناه الأبحاريون ويدعه يتقلب طول الليل على مضجع الألم من مرض أضراره، فلا يرجع ولا يحضر له طبيباً ولادواء، ويلقبه «بالدب» الذي وضع في أنفه حلقة من حديد ويسمح لبعض الزائرين من السائحين أن ينظروا إليه خلصة من ثقب باب حجرته، كأنه أسد هرم رابض في قفصه بمجدبة الحيوان، هذا الذي كان وحده يقيم العروش ويثمل العروش، ويدب بحذائه المسكري على أديم أوروبا فتهتز لمشيته التيجان على رؤوس الملوك. وكان يقول في صوته الحديدي: «أنا وحدي «أوروبا»، فتقول له أوروبا كلها: بل أنت «العالم». نعم لا شيء يؤلم نفسي مثل رؤية «العظيم» يرى سقوطه بعينيه، ومع ذلك لقد احتفظ هذا العظيم بكبريائه حتى النفس الأخير. فلقد كان يصر على أن يلقب بالامبراطور، ولقد خاطبه في ذلك مرة حارسه الإنجليزي قائلاً له: إمبراطور على من؟ وإمبراطور على ماذا؟ فلم يجد منه إلا تشبثاً. فأذعن رفقاً به أو سخريته منه، وترك له هذا اللقب الذي لا يفي ولا يفيد. ولبت هذا البطل المهجور يمشي في هذه الجزيرة المهجورة إلى أن مات، لا بين قصف المدافع ودوي الأوتار ودق الطبول وهتاف العالم من جميع الأركان، ولكن بين سكون النسيان، لا يشيع جثمانه العظيم غير خادم وسجان. بالقسوة القدر! إن السماء انتقم أحياناً من العظيم الذي يتوهم أنه غير وجه العالم بأعماله، فتؤخر موته بضعة أيام عن الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يموت، حتى يرى بعينه قبل أن تغلق أن العالم بخير لم يتغير فيه شيء بدهائه، ولم تخفت ضحكاته ولم تغف عجلاته برحيله.

توقيع الحكيم

ولا يبق بما وعد، لأنه لا يملك منها إلا عنواناً في ورقة بيضاء؛ ومن ذلك مقالة (الزبال الفيلسوف) التي وعد أن يكتبها حين أنشأ للرسالة قصة «بنت الباشا» ثم مضت ثلاثة أعوام ووفاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنواناً في رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمغاني التي كان يدخرها إلى يومها المؤمل.

واقدم وجدتُ على مكتبه في طنطا عداة نعية كثيراً من هذه الورقات، تشير إلى كثير من أمل الأحياء وإلى كثير من خداع الحياة ...!

\*\*\*

... فإذا تم له اختيار الموضوع الذي يتهيأ لكتابه، تركه للفكر يعمل فيه عمله، وللاواعية الباطنة أن تهني له مادته؛ ويدعه كذلك وقتاً ما، يطول أو يقصر، يقيد في أثناءه خواطره لا تكاد تغفل منه خاطرة؛ وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة وحي، فكان في كل موجود يراه صوتاً يسمعه، وكان في كل ما يسمعه لوتاً يراه، وكان في كل شيء شيئاً زائداً على حقيقته يعل عليه معنى أو رأياً أو فكرة ...

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف — والقدر الكافي لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة — يأخذ في ترتيبها معنى إلى معنى، وجملة إلى جملة، ورأياً إلى رأى. فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة

ثم هو يعود بمد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة — بمد أن ينفق عنها من الفضول ما يدخره لـ «كلمة وكلمة» أو لموضوع آخر — فينظر فيها، ويترجم بينها، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد؛ ولا يزال هكذا: يترجم ويستولد، ويستنتج من كل معنى معنى، ويتفطر له عن كل رأى رأى، حتى تستوى له المقالة فكرة تامة بعضها من بعض، فيكتبها إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن، وعمل النفس، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرائي إلى القراء في قالب الأخير الذي يطالع به الأدباء ... ويبني وبين القراء ميعاد ...

محمد سعيد العريانه

«شبرا»